حوليات آداب عين شمس المجلد 52 (عدد أكتوبر – ديسمبر 2024)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

انبناء المعنى في نصّ "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران في ضوء نظرية الأفضية الذهنية

نورة الحملي*

أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية
nalhmeli@kfu.edu.sa

تاريخ الاستلام: 2024/09/19
تاريخ قبول البحث: 2024/09/26
تاريخ النشر: 2024/12/30

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران في ضوء نظرية الأفضية الذهنية لجيل فوكونييه (Gilles Fauconnier)، وهي إحدى النظريات المنبجسة عن الدراسات العرفانية، حيث تسمح هذه النظرية بتأويل الخطاب من خلال البحث في كيفية بناء المعنى عبر أفضية متشابهة وعناصر وأدوار وعلاقات بين هذه الأفضية.ومسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران خاضعة لعمليات إدراكية وآليّات ذهنية، تجعل من الخيال ممكناً وتسهّل عملية الفهم والتأويل، فقد استعان جبران بقرائنَ ثقافيةٍ لتأسيس أفضية ذهنية مبنية من أفضية افتراضية قرينة للوصول إلى هدفه، حيث تمثّلمدينة إرم ذات العماد إطاراً متكاملاً من خلال أوصافها وخصائصها المترسّخة بفعل الثقافة، ممّا يؤدّي إلى إنشاء تمثيلات ذهنية متعدّدة، وتشكيل بنية معرفية منسجمة،فقد ساعدت هذه النظرية على الوقوف على كيفية انبناء المعنى ورسم الشخصيات من خلال المعرفة المترسّخة في ذهني الكاتب والمتلقّي. وقد توصّلنا إلى أنّ هذه الأفضية تحيل على فلسفة وجودية صوفية تظهر في النصّ وتتشكّل من خلال بنيته المتسلسلة والمبنية على بعضها البعض، وكان كلّ فضاء قادح لفضاء آخر هدفًا من خلال مبدأ الاهتداء، فتتوالد الأفضية في هذا النصّ توالداً منطقياً هادفاً مترابطاً ترابطاً فكرياً وتركيبياً.

كلمات مفتاحية: إرم ذات العماد، الأفضية الذهنية، جبران خليل جبران، جيل فوكونييه، العرفانية.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2024.

- مقدّمة:

انصرفت الدراسات اللسانية مؤخّراً لمقاربة الخطاب وتفسيره من خلال الذهن وآليات اشتغاله، فركّزت على عملية إنتاج المعنى وتأويله بواسطة تشكّله في ذهن المتكلّم، وقدّمت اللسانيات العرفانية–خاصّة– نظرياتٍ متعدّدةً اعتنت باللغة بوصفها كامنة في الذهن، ومن أبرز هذه النظريات: نظرية الاستعارة التصوّرية (conceptual metaphor)، ونظرية العوالم الممكنة (possible worlds)، ونظرية الأفضية الذهنية(mental spaces)، ولهذه النظريات اتّصال بالتداولية أو بشكل أدق بالتداولية العرفانية.

وقد انبعثت نظرية الأفضية الذهنية من الدراسات العرفانية النفسية، فعدّت الفضاء اللغوي فضاء ذهنياً، وكان هناك خروج على المنهج الشكلي المنطقي في تأويل المعنى؛ فالدراسات العرفانية تقوم على "تناول اللغة من حيث طبيعتها ووظيفتها الأساسيّتان: فهي نشاط عرفني في ذاتها وحامل لتمثيلات عرفنية؛ ولذلك وجب تناولها من زاوية خصائصها الدلالية العرفنية ومن زاوية تفاعلها وسائر الملكات العرفنية من قبيل الإدراك والتذكّر والتصوير والعمل والتجسدن وتمثيل البيئة والسياق وما إلى ذلك. ويمكن أن يختزل برنامج اللسانيات العرفنية في دراسة الأبعاد العرفنية في التواصل اللغوي" (الزنّاد، 2010، ص.ص.27–28). وبناء على ذلك، لا يمكن تفسير اللغة بمعزل عن السياق.

وفي هذه الدراسة، نستنير بالمنهج العرفاني وبنظرية الأفضية الذهنية –بوصفها نظرية عرفانية– وما تتيحه من أدوات وإمكانات لتحليل نصّ أدبي وهو مسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران؛ نظراً لاهتمامها بكيفية بناء المعنى من خلال السياق، فهي تعنى بالعمليات الذهنية والخلفية المعرفية التي تسهم في بناء المعنى.وهذه المسرحية هي – بطبيعتها– نصّ أدبي خاضع لعمليات إدراكية ذهنية جعلت من الخيال ممكناً، فساعدت أسطورة "إرم ذات العماد" على الاستهداء للدلالة المقصودة من خلال ربط العوالم التخييلية بالعوالم الواقعية، حيث تعدّ هذه المسرحية أنموذجاً لمزيج من الواقع والخيال. وقد استثمر جبران أسطورة "إرم ذات العماد"،وهي مدينة حقيقية ذكرت في القرآن الكريم وفي كتب التاريخ العربي، ولكنّها مدينة مختفية محجوبة وسط الصحراء، اختارها جبران لينشئ نصّاً أدبياً بدلالات جديدة، فهو لا يريد كتابة التاريخ ولكنه انطلق منها ليعبّر عن أفكاره ويحقّق مقاصده الفكرية والفنية، فالفكر مكوّن أساس لأي نصّ أدبي فنّي، إذ لا يمكن للمعنى –في النصوص الأدبية خاصة– أن يتشكّل بعيداً عن الإيديولوجيا والخلفية المعرفية والثقافية للمتكلّم والمتلقّي.

لقد اعتمد جبران في هذا النصّ الأدبي على التمثيلات الثقافية التي ارتبطت بها "إرم ذات العماد"، وهو يسعى من خلالها إلى الهروب من مظاهر الحياة المادية إلى التركيز على الجانب الروحي وسط الطبيعة الهادئة، فكان التصوّف هو سبيل الوصول إلى ذلك، فتضافرت المحدّدات في هذا النصّ الأدبي لبناء أفضية ذهنية متخيّلة وتشكيلها من خلال التمثيل الذهني مع عوالم واقعية؛ ولذلكاتخذنا منهجاً تحليلياًعرفانياً للوصول إلى الدلالات المقصودة ومن ثمّ النتائج المرجوة.فحاولنا في هذا البحث الوقوفعلى بعض الإشكالات والإجابة عن بعض التساؤلات، وهي: كيف يتمّ بناء المعنى من خلال نظرية الأفضية الذهنية؟ وما مدى مساهمة نظرية الأفضية الذهنية في تأويل الخطاب وفهم الأبنية اللغوية

وتفسيرها؟ وما هو دور العمليات الذهنية والخلفية المعرفية والثقافية في تشكيل نصّ "إرم ذات العماد"لجبران خليل جبران؟ وكيف استطاع جبران خليل جبران في هذه المسرحية إنشاء وتشكيل أفضية ذهنية من خلال أسطورة "إرم ذات العماد" التي ساعدته على بلوغ هدفه وغايته؟

ولم نجد دراساتٍ سابقةً تناولت هذه الإشكالات أو أجابت عن هذه التساؤلات، فأغلب الدراسات السابقة كانت دراسات نظرية، اكتفت بالتنظير وتوضيح مفاهيم نظرية الأفضية الذهنية، أمّا الدراسات التطبيقية لهذه النظرية على نصوص أدبية فهي قليلة جداً؛ ممّا جعلنا نستنير بهذه النظرية لدراسة نص أدبي وتحليله. ولعلّ أبرز الدراسات العربية لهذه النظرية وأهمّها دراسة الأزهر الزنّاد في كتابه "نظريات لسانية عرفنية"، حيث وضّح –في الفصل الخامس: الروابط العرفنية– أهمّ مفاهيم نظرية الأفضية الذهنية، ثمّ قام بتطبيق نظرية الأفضية الذهنية على نصّ قصير بعنوان "خبر جحا والحمّال"، فجمع الزنّاد بذلك بين النظرية والتطبيق، وأصبح كتابه مرجعاً أساسياً في هذا البحث.

وقد قسّمنا البحث إلى مدخل نظري بيّنا فيه أهمّ المفاهيم الرئيسة لنظرية الأفضية الذهنية عند جيل فوكونييه (Gilles Fauconnier, 1984)، التي استنرنا بها في قراءة نصّ "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران وتحليله، ومن ثمّ وقفنا على الأفضية الذهنية في المسرحية، وقسّمناها إلى خمسة أفضية: فضاء منظور حاضن لفضاء ابن، وأربع أفضية كلها أبناء تتناسل منها، وأخيراً أنهينا البحث بخاتمة تأليفية تضمّنت أهم النتائج المنهجية والمعرفية التي توصّلنا إليها في هذه الدراسة.

- **مدخل نظريّ:**

اعتنى العلماء اللغويون بكيفية بناء المعنى أثناء التواصل، فوقفوا على الآليات والأدوات البانية للمعنى والمساعدة عليه، ومن أبرز هؤلاء العلماء جيل فوكونييه (1984)، مبتكر **نظرية الأفضية الذهنية(mental spaces)** التي طرحها في كتابه المسوم بـــ: الأفضية الذهنية: مظاهر من بناء المعنى في اللغات الطبيعية.وتتمثّل هذه النظرية وفقاً لفوكونييه"في اعتبار اللغة واستعمالها بناء ذهنياً مجرّداً لفضاءات وعناصر ولأدوار وعلاقات بين فضاءات. وقوام التواصل، حسب وجهة النظر نفسها، يتمثّل في بناء فضاءات متشابهة أو متماثلة. وغرض نظرية الفضاءات الذهنية دراسة كيفية أو كيفيات بناء الفضاءات والعلاقات بين الفضاءات" (موشلروريبول، 2010، ص.162). فهذه النظرية تبحث في كيفية انبناء المعنى والعمليات الذهنية التي تتشكّل عبر أفضية متعدّدة أثناء التواصل وفي سياق محدّد.

يرى فوكونييه أنّ هناك مستوى وسيطًا أو بينيًّا، يسمّيه المستوى المعرفي، "وهذا المستوى يبنى. إنّه يبنى حين تستعمل اللغة، بحيث يتمّ تحديده، في نفس الوقت، بواسطة الأشكال اللغوية التي نستخدمها في تركيب وإنتاج خطاب ما، وبواسطة مجموعة مرتّبة من التلميحات الخارج– لغوية التي تدخل فيها أشياء من قبيل الخلفيات والتنبّؤات والتجلّيات الذريعية... إلخ" (جحفة، 2000، ص.50). فالعبارات –بناء على ذلك– لا تحمل معنى حرفياً قضوياً، بل يتمّ بناء معنى آخر متخيّل غير مباشر بواسطة البناء الذهني في المستوى المعرفي.

وقد قارن بعض النقاد بين نظرية الفضاءات الذهنية ونظرية العوالم الممكنة، نظراً للتشابه بين النظريتين، إلّا أنّ هناك فوارق واضحة بينهما، بيّنها آن ريبول (Anne Reboul) بوقوفه على موضوع الإحالة التي تتضمّن عنده ثلاثة مظاهر: المظهر اللساني، والمظهر التداولي، والمظهر الميتافيزيقي، فميّز بين النظريتين من خلال المظاهر التي تعنى بها كلّ نظرية منهما، فنظرية الأفضية الذهنية "تعنى بمظهر الإحالة التداولي، في حين تعنى الثانية بمظهرها الميتافيزيقي. ولئن كانت نظرية العوالم الممكنة، في واقع الأمر، نظرية في المنطق الفلسفي تتصدّى لمسألة الجهة (الإمكان والحقيقة غير الضرورية contingente والحقيقة الضرورية necessaire)، فإنّ نظرية الفضاءات الذهنية نظرية نفسية بالمعنى الذي يضبطه علم النفس العرفاني" (موشلروريبول، 2010، ص.162). فالنظريتان تتشابهان في تناول الجانب غير اللساني من الإحالة، ولكنّهما تختلفان أيضاً في أنّ إحداهما تهتمّ بالجانب التداولي للإحالة والأخرى تهتم بالجانب الميتافيزيقي.

ولقد سبقبعض العلماء فوكونييه في الاهتمام بالذهنية، فكانت الذهنيةإحدى المقوّمات الأساسية لبعض نظريّات المعنى والدلالة، فنجد راي جاكندوف (Ray Jackendoff) قد ركّز اهتمامه على التمثيل الذهني والبنية الذهنية، وبيّن أهمّيتها في النظرية العرفانية، حيث وسّع جاكندوف نظرية الدلالة التصوّرية وربطها بالذهن، فهو يرى أنّ البنية الدلالية هي البنية التصوّرية، "وأنّ معنى جملة من الجمل ليس مشروطاً بعلاقتها بالواقع الذي يحدّد قيمة حقيقتها ولا بالبنية النظمية المجرّدة، بل ببنية المفاهيم التي توظّف في ذهن المتكلّم أو السامع، وطبيعتها" (جاكندوف، 2010، ص.16). فالتمثيل الذهني يعدّ من المقوّمات الأساسية لنظرية الدلالة التصوّرية التي أسّس لها جاكندوف.

أمّا المرجعية المعرفية لنظرية الأفضية الذهنيةفتعود إلى التداولية، لأنّها تهتمّ بدراسة الأفضية الذهنية في السياق الكلامي بين المتكلّم والمخاطَب، وهي أيضاً متولّدة عن مفهوم تداولي سابق وهو الوظيفة الإحالية الذي حلّله العالم اللساني نونبرغ (Nunberg)، "والوظيفة الإحالية هي الوظيفة التي تسمح بإقامة علاقات بين أشياء مختلفة، سواء أكانت هذه العلاقات مندرجة في علم النفس أم في الثقافة أم في التداولية" (موشلروريبول، 2010، ص.162). فهو يرى أنّ هذه الوظيفة تقوم بتحليل النصوص اللغوية أو المكوّنات الثقافية أو التاريخية أو الاجتماعية أو غيرها، من خلال الذهن، فيكون لها بناءً على ذلك وجهان: وجه واقعي ووجه متصوّر عنه في الذهن (انظر: الجداري، 2021، ص.82).

ثمّ جاءفوكونييهوقام بتغيير تسمية هذه الوظيفة التي وضعها نونبرغ من الوظيفة الإحالية إلى **الوظيفة التداولية (pragmatic function)**،حيث إنّ هذه الوظيفة تسمح بالربط بين مجالين عبر دالّة تداولية، مثل ربط المؤلّفين بالكتب التي ألّفوها، فيتم تحديد مجال ما عبر تحديد مقابلاته في المجال الآخر، فهذه الدالة التداولية تسمح بالانتقال من فضاء دلالي إلى آخر بناء على العلاقات الموجودة بين الفضاءين (انظر: سعودي وقبايلي، 2022، ص.344)، وبناء على ذلك، وضّح فوكونييه الأدوات والإجراءات التي تقوم عليها نظرية الأفضية الذهنية، ومن أهمّها:

مبدأ التعيين (identification principle): ويعدّ من أهمّ المبادئ التي تقوم عليها نظرية الأفضية الذهنية، وهو مرتبط ارتباطاً مباشراً بالوظيفة التداولية، حيث إنّ العملية التي يتمّ من خلالها المرور من فضاء إلى آخر تسمّى عملية التعيين، ويوضّحها فوكونييه على النحو التالي: "إذا كان العنصران (في المعنى الأعمّ) "أ"و"ب" مترابطين من خلال دالة تداولية ر(ب=ر(أ)) فإنّ وصف "أ" يمكن أن يفيد في تعيين موافقة "ب". وفي مصطلحية فوكونييه، فإنّ "أ" هو قادح الإحالة و"ب" هو هدف الإحالة و"ر" هو الرابط" (موشلروريبول، 2010، ص.ص.162-163). فالمتكلّم يقوم ببناء أفضية تدرك بوجود روابط مختلفة، ولا يمكن فهمها إلّا من خلال السياق والمقام والظروف المحيطة به، ويمكن أن نستعين بالمثال الذي ذكره فوكونييه -مستعادًا من نونبرغ- لتوضيح ذلك: (غادرت عجّة الجانبون دون تسديد الحساب).

بناءً على مبدأ التعيين فإنّ عجّة الجانبون هي قادح الإحالة (trigger)، والزبون هو هدف الإحالة (target)، ويتمثّل الرابط العرفاني (connector) في الدالّة التداولية والعلاقة بين القادح والهدف، فالزبون طلب أو أكل عجّة الجانبون. فمن غير الممكن أن نفهم المعنى بالوقوف عند المعنى الحرفي السطحي، وإنّما لا بدّ من اللجوء إلى سياق الخطاب والمقام (مطعم) وعناصره، حيث كلّها تدلّ على أنّ الطبق يحيل إلى صاحبه الذي طلبه، فتدلّ بذلك عجّة الجانبون على الزبون الذي طلبها (انظر: موشلروريبول، 2010، ص.163).

يتّضح لنا أنّ فوكونييه قد بحث في عمليات الربط الذهنية التي تحدث أثناء التواصل في مختلف السياقات، وبيّن أثر هذه العمليات في انبناء المعنى. ومع ذلك، فإنّ فوكونييه لم يقف عند طريقة واحدة للربط بين الأفضية، حيث يجمل بعضاً من أنواع الربطفي "بعض الدالّات التداولية والمجاز المرسل والاستعارة والقياس وربط الدور بالقيمة والاهتداء إلى التطابق والعلاقات الرابطة بين العالم المتصوّر ونظيره في الواقع" (الزنّاد، 2010، ص.200). وبناء على ذلك يتّضح لنا أنّ طريقة معالجة المعلومات تختلف باختلاف السياق والمقام ونوع الخطاب.

مبدأ الاهتداء (access principle): إنّ هذا المبدأ من أهمّ مبادئ نظرية الأفضية الذهنية، ويصوغ له فوكونييه التعريف التالي: "يمكن لعبارة تسمّي أو تصف وحدة معلومة من مجال ما أن تجري للإحالة على وحدة أخرى من مجال آخر، تسمّى الوحدة الأولى قادحاً وتسمّى الثانية هدفاً وعملية الإحالة اهتداء" (الزنّاد، 2010، ص.206). ففي الخطاب نلحظ وجود رابط ذهني إدراكي بين المتكلّم والمخاطَب، يمكن من خلاله الاهتداء للمعنى.

وهذا المبدأ مرتبط بشكل مباشر بالروابط بين الأفضية (connectors)، فلا يمكن الاهتداء للمعنى إلّا من خلالها، فالأفضية الذهنية تترابط عن طريق "الإحالة الذهنية -الإدراكية- وذلك بأن تكون الوصلة الذهنية بين القادح والهدف مؤدّية إلى عملية الاهتداء إلى الدلالة المقصودة، إذ يمكن أن تبنى الأفضية الذهنية وتترابط فيما بينها على وفق ترابطات إدراكية -إحالية- بين منتج النصّ ومتلقّيه" (النصراوي، 2023، ص.399).

وفي مثال فوكونييه المذكور سابقاً (غادرت عجّة الجانبون دون تسديد الحساب) نلحظ وجود رابط ذهني إدراكي بين المتكلّم والمخاطب، ويمكن بواسطة هذا الرابط الاهتداء إلى الدلالة المقصودة لعجّة الجانبون، وهي الزبون، فيرى فوكونييه أنّنا نقوم بتسمية الأشياء –عجّة الجانبون مثلاً– باعتماد ترابطات عرفنية متّصلة بالتجربة البشرية (انظر: الزنّاد، 2010، ص.205)، وهذه الترابطات تمكّن المتلقي من الاهتداء للدلالة المقصودة، وذلك عوضاً عن تسمية الأشياء في ذاتها، فلم يستخدم المتكلّم –في المثال– التسمية الحقيقية الحرفية للمعنى المقصود وهي الزبون أو اسمه الأوّل.

الفضاء المنظور(the viewpoint space): تترابط الأفضية الذهنية وتنتظم من خلال فضاء منطلق هو ما أطلق عليه فوكونييه"الفضاء المنظور"، الذي "منه يمكن الاهتداء إلى سائر الأفضية أو منه تبنى أفضية جديدة" (الزنّاد، 2010، ص.212). فالانتقال في شبكة الأفضية الذهنيةيكون من الفضاء الأساس"المنظور" إلى الآخر ومنه إلى فضاء آخر، حيث يتوفّر العنصر الواحد في فضاء من الأفضية ويتوفّر نظيره في الآخر وهكذا، ويتمّ الانتقال من خلال الروابط بين الأفضية، فالفضاء المنظور يُربط بجميع الأفضية الذهنية الأخرى التي تُبنى من خلال الخطاب، فيكون بمثابة قاعدة أساس لبناء أي فضاء جديد.

بناة الأفضية (space builders): وهي من المفاهيم التي وقف عليها فوكونييه في نظرية الأفضية الذهنية، وتتمثّل البناة في "آليات يستعملها المتكلّم ليجرّ سامعه إلى تأسيس فضاء ذهني جديد. وهي العباراتالمتحققة في الخطاب (مركّبات أو وحدات نحوية) تؤسّس فضاء ابناً لفضاء أساس يترابطان بوجه ما. ولا تحمل بناة الأفضية في ذاتها معلومات عن الفضاء الجديد، وتتكوّن من الأسماء والصفات وكلّ ما يعبّر عن الزمان والمكان وغيرهما من الأطر الافتراضية" (الزنّاد، 2010، ص.207). فيرى فوكونييه أنّ بناء الأفضية يتمّ بواسطة وحدات بانية، يكون دورها الإشارة إلى نشأة فضاء جديد، مثل تحديد الزمان: في سنة أو بالأمس، أو تحديد المكان: في المقهى أو في الجنّة، أو أدوات الاعتقاد: يظنّ أو من المحتمل، وغيرها من الأدوات والمحدّدات اللغوية والتداولية، فمن الممكن أن تكون وحدات من أنماط متعدّدة.

إنّ بناة الأفضية تحيل المتلقي إلى فضاءات أخرى متخيّلة، فمما تتميّز به "هذه الوحدات البانية للفضاءات أنّها تتطلّب من السامع بناء سيناريوهات خارج "هنا" و"الآن"؛ سواء كانت هذه السيناريوهات تعكس واقعاً في الماضي أو في المستقبل، أو واقعاً في مكان آخر، أو واقعاً مفترضاً، أو واقعاً متعلّقاً بمعتقدات أو أفكار، إلى غير ذلك" (الشمري، 2019، ص.306).

ومن الممكن أن نستعين بالمثال الذي استخدمه فوكونييه لتوضيح ذلك، وهو: "في تصوّر لوقا أنّ للفتاة ذات العينين الزرقاوين عينين خضراوين"(انظر: موشلروريبول، 2010، ص.164). فالوحدة البانية في هذا المثال هي "في تصوّر لوقا" حيث يبني هذا التعبير فضاءً ابناً لفضاء قرين، والقادح هو "الفتاة ذات العينين الزرقاوين"، والهدف هو "الفتاة ذات العينين الخضراوين". والوحدة البانية في هذا المثال تبني اعتقادات المتكلّم وليس الواقع أو الحقيقة، فتساعد على إنشاء الأفضية في الذهن، وبالتالي بناء المعنى.

كما وضّح فوكونييه أنّ بناء الأفضية مرتبط باللغة؛ فالتعابير اللغوية هي التي تنشئ هذه الأفضية، كما أنّه حدّد العلاقة بين هذه الأفضية، قائلاًبأنّ الفضاء يبنى "داخل فضاء آخر يطلق عليه اسم **الفضاء القرين**، وعلاقة التضمّن inclusion هذه إمّا أن يدلّ عليها التضمين enchâssement التركيبي للعناصر البانية للفضاء، وإمّا أن يستدلّ عليها تداولياً" (موشلروريبول، 2010، ص.ص.163-164). وقد لاحظنا أنّ علاقة التضمّن بين الأفضية الذهنية في مدوّنة البحث يستدلّ عليها -غالباً- تداولياً، وهذا ما جعلنا نقف - كما هو آتٍ - على الفضاء القرين والفضاء الابنوالمحدّدات المساعدة على الاهتداء في الفضاء المنظور والأفضية المتناسلة عنه ودورها في بناء المعنى في مسرحية (إرم ذات العماد) لجبران خليل جبران.

- **الأفضية الذهنية في مسرحية إرم ذات العماد:**

- **الفضاء الأوّل (الفضاء المنظور): فضاء قرين (إرم ذات العماد) حاضن لفضاء ابن1 (رحلة صوفية للبحث عن المدينة المحجوبة):**

يتمثّل الفضاء المنظور -الأساسأو المنطلق-في "رحلة صوفيةللبحث عن المدينة المحجوبة" التي اختار الكاتب تمثيلها بـــ "إرم ذات العماد"، وهذه المدينة تمثّل إطاراً متكاملاً من خلال أوصافها وخصائصها المترسّخة -بفعل الثقافة- في أذهان الناس. وقد قام جبران بكتابة توطئة لإرم ذات العماد أخذها من كتاب سير الملوك للشعبي؛ ليرسّخ فكرة هذه المدينة ومفهومها، وليساعد المتلقي على فهم النصّ. فقد بنى جبران المسرحية على قصة مدينة "إرم ذات العماد" لما لها من أثر في الذاكرة والخيال الجمعي، حيث تمثّل الفردوس المفقود والمدينة المحجوبةالتي اختفت في الصحراء ولم يستطع الناس الوصول إليها، والمدينة المحجوبة رمز يستخدمه المتصوفون بكثرة في نصوصهم، وقد عُرف عن جبران تأثّره بالصوفية في كثير من أعماله، ولذلك نلحظ أنّ "تمثيلات إرم ذات العماد في مسرحية جبران هي تمثيلات رمزية روحية تصدر عن رؤيته الكلية في مجمل أعماله الشعرية والنثرية، وهي رؤية صوفية تنزع إلى وحدة الأديان دون النظر إلى الفوارق العقائدية والمذهبية" (الكعبي، 2022، ص.39)، كما ترمز مدينة إرم المحجوبة في هذه المسرحيةإلى "رتبة المعرفة الصوفية؛ هذه الرتبة التي لا يدركها إلا القلائل المختارون من العباد، فدلّ الوصول إلى إرم بذلك إلى الوصول إلى المعرفة والحكمة الإلهية" (صحراوي، 2009، ص.163).

وهذا الفضاء يتأسّس من خلال عنوان المسرحية "إرم ذات العماد" بكل وحداته التصوّرية، فقد كان العنوان مولّداً للأفضية الذهنية في النصّ، فهو فضاء منظور؛ ممّا جعل الخطاب من بدايته حتى نهايته منسجماً ومترابطاً في ذهن المتلقّي، وهو فضاء شكلته أسطورة إرم ذات العماد كإطار كامل بكلّ ما يحمله من معانٍ وخصائص، وكلّ ما يستحضره في الذهن من تمثيلات أدّت إلى تشكيل بنية معرفية منسجمة.

إنّ كلّ فضاء في النصّ يتضمّن معلومات إمّا أن تكون حاضرة بشكل مباشر في النصّ فيصرّح بها الكاتب في تقديمه للمسرحية أو في حواراته وسرده، وإمّا أن تكون من مستلزمات الأطر العرفنية للفضاء، وجبران قد اختار هذا الأثر التراثي"إرم ذات العماد" وبنى عليه مسرحيته، فيقتضي فهم النصّ معرفة ثقافية بهذا الأثر التراثي، فالفضاء الذهني

في النصّ يعتمد على الثقافة والخلفية المعرفية لكل من المرسل والمتلقّي.فمن خلال العنوان، يتمثّل الفضاء المنظور الأساس وهو فضاء محجوب مفقود يمثّل حلمه الذي يريد الوصول إليه؛ ولذلك كان العنوان مشكّلاً لفضاءاتٍللمعاني التي ينتظمهاالكاتب في ذهنه،ومن ثمّ إخراجه على نحو مخصوص يبني بواسطته الفضاءات الأخرى في النصّ والمتناسلة عن الفضاء المنظور. ففي العنوان ينبني فضاءان ذهنيان، أوّلهما واقعي قرين حاضن وهو صورة إرم ذات العماد كما وصفتها كتب التراث، وكما تمّ توارثها وتداولها بين الناسوكما ترسّخت في الذهن والذاكرة الجمعية، فهي مستمدّة من الخلفية المعرفية والثقافية المشتركة بين المرسل والمتلقّي، وهي التي وصفها في التوطئة. وأما ثانيهما، فهو فضاء ذهني جديد فضاء ابنٌهو مفهوم إرم ذات العماد عند جبران خليل جبران كما وصفها في مسرحيّته وهي المدينة المحجوبة، إلّا أنّ هذا الفضاء الثاني لا يكتمل إلّا من خلال الأفضية المتناسلة عنه والمرتبطة به، وهذان الفضاءان يترابطان عرفانياًوتداولياً من خلال التشابه؛ لأنّ الفضاء الثاني الابن مستمدّ من الفضاء الأوّل الواقعي القرين وممثّل له، ولكنه اكتسى طابع الرمزية والخيال.

ويظهر في هذا الفضاء المنظور تعلّق جبران بفكرة المدينة المحجوبة وطريقة الوصول إليها، وبسبب تعلّقه بهذه الفكرة جعل الإطار الكامل للفضاء المنظور هو (رحلة صوفيةللبحث عن المدينة المحجوبة)، هذه الحكاية الممتدّة عبر الأزمان (أي: إرم ذات العماد)، فاختار المكان وصاغ الشخصيات بما يتناسب معها.فقد بنى الكاتب هذا الفضاء المنظور بمحدّدات وهي: المكان، فوصفه بقوله: "المكان: غابة صغيرة من الجوز، والحور، والرمّان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي، وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان" (جبران، 1994، ص.113)، واختيار جبران لهذا المكان يعكس طبيعته وتوجهه الرومانسي، فكانت الطبيعة هي متنفّس جماعة المهجر، والغابة –خاصّة– ملجأهم، فهي تحمل طابعًا فلسفيًّايتمثّل في تمرّدهم على الحياة المدنية، وفي لجوئهم إلى الفطرة والطبيعة الخام والفضاء والحرية المتمثّلة في الغابة. كما أنّ الطبيعة لها ارتباط بالصوفية فهي تشعرهم بالجمال في الكون وإبداع الخالق، وهذا الجمال يعكس الجمال الإلهي عند الصوفية ويجسده.يضاف إلى ذلك أنّ هذه القرية لها دلالة خاصّة لديه فهي قريبة من قريته التي ولد فيها فكان يقصد هذا المكان في حياته الواقعية، فقد ولد جبران بقرية بشرّي (راجع: الجبوري، 2002،ص.15)، وهي قرية قريبة من المكان الموصوف في النصّ.أمّا المحدّد الثاني فهو الزمان، وحدّده بقوله: "الزمان: عصارى يوم من أيّام تمّوز في سنة 1883" (جبران، 1994، ص.114)، وهذه السنة هي السنة التي ولد فيها جبران خليل جبران (راجع: الجبوري، 2002،ص.15)، فقد يكون اختيارها مقصوداً ليربط هذه المسرحية وشخصياتها بشخصه، وخاصّة أنّه عُرف عن جبران تأثّره بالصوفية، وهذه المسرحية تمثّل رحلة الصوفية في طلب المعرفة وحقائق وأسرار الحياة والكون.

فما وصفناه سابقاً يعدّ قرائن تساعد على فهم النص وتأويله، وهي قرائن ثقافية واجتماعية استعملها جبران في نصّه لتأسيس أفضية ذهنية وللاهتداء إلى هدفه، فقد رأى فوكونييه أنّه يمكننا إعادة قراءة الأبنية وتفسيرها "بواسطة فضاءات ذهنية تنتظم وتترابط في ضوء قرائن تركيبية ومقامية وثقافية واجتماعية تمكّن المخاطَب من الاهتداء إلى الدلالة المقصودة وإلى المحال عليه داخل تلك الأبنية" (الذويبي، 2016، ص.14).فالاهتداء للمقاصد المضمّنة في النصّ يتطلّب

معرفة المتلقّي بالمقوّمات الثقافية والاجتماعية للمتكلّم حتّى يتسنى له فهم مقصده، فإرم ذات العماد والمكان والزمان والشخصيات –التي سيأتي الحديث عنها في الأفضية القادمة– كلّها قرائن تتطلّب معرفة مشتركة بين المتكلّم والمخاطَب، فأنشأت فضاءً ذهنيًّا يتمثّل في رحلة البحث عن المدينة المحجوبة وهي رحلة صوفية.

– الفضاء الثاني: فضاء قرين (لقاء نجيب رحمة بزين العابدين النهاوندي) حاضن لفضاء ابن2 (الوسيط الصوفي للوصول للمعرفة):

ومن الفضاء الأوّل ينبني فضاء جديد وهو "لقاء نجيب بزين العابدين النهاوندي"، الذي يشكّل ويحضنالفضاءالابن الثاني المتولّد عن الفضاء المنظور، وهو "الوسيط الصوفي والخطوة الأولى في الرحلة للوصول إلى المعرفة الهدف"، حيث يرث هذا الفضاء الابن من الفضاء المنظور عدداً من العناصر أهمّها امتلاك زين العابدين المفتاح الأوّل للوصول إلى حكاية إرم ذات العماد، والمحدد المكاني أو القرينة المكانية هي التي أخذتنا لهذا الفضاء الذهني، عندما قال: "يدخل الغابة نجيب رحمة [...] ثمّ يقترب من زين العابدين" (جبران، 1994، ص.114). وهناك محدّد آخر وهو المحدد التواصلي القولي وبداية الحوار بينهما، عندما قال: "نجيب رحمة: السلام عليكم يا سيدي. زين العابدين: وعليكم السلام" (جبران، 1994، ص.114). فهذه المحدّدات نقلتنا ذهنياً إلى هذا الفضاء الابن والذي يمثّل الخطوة الأولى في الاهتداء والوصول إلى الهدف، بالإضافة إلى الشخصيات التي تظهر تدريجيّاً في كلّ فضاء، حيث إنّ هذه الأفضية مبنية من أفضية افتراضية وقرائن اختارها الكاتب للوصول إلى الهدف، فكلّ فضاء مرتبط بشخصية هي وسيلة ورمز لفكرة محدّدة سوف تساعد على الوصول إلى المعرفة في نهاية الرحلة، وهي مرتبطة ببعضها بروابط تركيبية وتداولية.

وهناك رابط عرفاني تداولي بين الفضاء المنظور والفضاء الابن الثاني، وهو الرمز الصوفي، فقد وصف جبران العنصر الأوّل في هذا الفضاء الذهني – وهو زين العابدين – بالصوفي، فوصف الصوفي هي خاصيّة لهذا العنصر، يريد بها جبران الإشارة إلى العلم والمعرفة التي يمتلكها الصوفية والمعروفة لدى المرسل والمتلقّي على حد سواء. ووصف جبران للشخصيات في المسرحية مهم، فهو السبيل للاهتداء والوصول إلى الهدف، فالشرط في عملية الاهتداء "أن يكون المجال الثاني ممّا يمكن الاهتداء إليه عرفنياً من المجال الأوّل، وأن يكون الترابط بين القادح والهدف. يتحقق الترابط في أداة أو قرينة ظاهرة" (الزنّاد، 2010، ص.206).

إنّ الوحدات البانية في هذا النص من تحديد للمكان (الغابة) ووصف للشخصيات (الصوفي) تُبيّن لنا أنّ الفضاء الذهني يتعلّق بالعالم الموجود في هذا المكان (الغابة) عند جبران، فالمكان يتضمّن وجود شخصيات مرتبطة به، كلّ ذلك يتّضح من خلال الأفضية الذهنية المبنية في حوارات المسرحية، فهذه الأفضية الذهنية "مبنية داخلياً عن طريق البنيات المعرفية الموجودة، وهي الأطر (frames) والنماذج المعرفية المؤمثلة (idealized cognitive models). فالوحدات البانية، والعناصر التي تدخل الفضاء الذهني، والخصائص، والعلاقات تعتبر كلّها بواعث على تشغيل هذه البنيات المعرفية الموجودة مسبقاً" (الشمري، 2019، ص.308). فالوحدة البانية في نصّ جبران تساعد على تمثيل إطار الغابة أو الطبيعة،

ويساعد العنصران صوفي ونهاوندي على تمثيل إطار الصوفية، كما يساعد فعل "الاتّكاء" في وسط الغابة –الذي وصف به جبران زين العابدين– على التعبير عن العلاقة بين العنصرين الطبيعة والصوفية؛ ممّا يوحي بطريقة تفكير الصوفية ببديع الخالق بعيداً عن الحياة المدنية ومغرياتها، فهو انعزال وزهد عُرفت بهما الصوفية، فربط الفعل (متّكئاً) بين الصوفي والطبيعة، وبذلك تقوم العلاقة بين العنصرين في الفضاء الذهني.

كما أنّ الفضاء المنظور –كما ذكرنا سابقاً– يرمز لرحلة صوفية لمعرفة أسرار الكون التي تحققها إرم ذات العماد، ولذلك جاءت كلّ الأفضية المتولّدة عنه تحمل هذا الطابع الصوفي، فزين العابدين صوفي ولد في نهاوند، ونشأ في شيراز وتثقّف في نيسابور وجاب مشارق الأرض ومغاربها، ولكنه يصف نفسه بعد هذا كلّه بقوله: "وأنا غريب في كلّ مكان" (جبران، 1994، ص.115). وهذه سمة الصوفية الذين يشعرون بعدم انتمائهم لهذا العالم واتصالهم بالعالم الآخر الخفي وامتلاكهم المعرفة عن العوالم الأخرى، فهذه الشخصية تمثّل عنصراً يصاحبه إطار مفهومي متكامل يتّضح من خلال لقبه (النهاوندي) وصفته (الصوفي) ممّا يوحي بخصائص محدّدة متّفق عليها في الثقافة والذاكرة الجمعية. حيث "يمثّل بناء الأفضية بناء للأطر كذلك فالإطار يمثّل نوعاً من الخطاطة المجرّدة التي تقود عمليّة الإسقاط بين الأفضية، ولذلك تكون العناصر الفاعلة في تصوّر المجال الجديد وتمثّله موروثة من مجال أو مجالات سابقة أو مستمدّة من عالم التجربة والخلفية المعرفية" (الزنّاد، 2010،ص.209).

والأفضية الذهنية في هذا النصّ ترتبط ببعضها بناءً على مبدأ الاهتداء؛ لأنّ لهذه الأفضية عناصر مشتركة، هي المكان والزمان والشخصيات، وهناك عناصر تترك فضاءً ذهنياً مبنيًا على الخلفية المعرفية لكل من المتكلّم والمتلقّي، مثل: صوفي، نهاوندي، آمنة العلوية، إرم ذات العماد. وهذه كلّها مستمدّة من الفكر الصوفي الذي استثمره جبران في هذه المسرحية، فالمتتبّع للنصّ يلحظ نزعة جبران الصوفية، والأفكار المتعلّقة بها التي غرسها في شخصياته وحواراتهم.لقد استمدّ معظم الأفكار من وحي الثقافة الصوفية، والرحلة كانت في طلب إرم ذات العماد وما ترمز إليه من المعرفة الحق والمدينة المندثرة المجهولة، وتغذية الروح، كلها رموز يستعملها المتصوّفون بكثرة، فعند بناء الأفضية الذهنية "فإنّ القبليات المعرفية، والمناويل المؤمثلة، والنظام التصوّري المتجذّر في أذهاننا، كلّها تعمل لفهم وتفسير القيم، والوقائع وكشف المعنى وإدراكه، وإذا كانت الأفضية تبنى على وفق فاعلية التراكيب النحوية فإنّها تدرك حقيقتها ويحاط بها عن طريق القدرة الاستدعائية –الطرازية– للذاكرة" (النصراوي، 2023، ص.397). فالأفضية في مدوّنة البحث تدرك من خلال طراز إرم ذات العماد وما تثيره في الذهن من عوالم متخيّلة عن المدينة المحجوبة عند الصوفية.

– الفضاء الثالث: فضاء قرين (لقاء نجيب رحمة بآمنة العلوية) حاضن لفضاء ابن3 (الوصول إلى المصدر الصوفي للحصول على المعرفة):

ثم يُبنى فضاء جديد وهو الفضاء الثالث (لقاء نجيب رحمة بآمنة العلوية)،وهذا الفضاء القرين يشكّل فضاءابناً ثالثاً للفضاء المنظور، وهو: "الوصول إلى المصدر الصوفي للحصول على المعرفة حول إرم ذات العماد"، وهذا الفضاء مرتبط بالفضاءين السابقين، وهناك عناصر مشتركة بين الأفضية الثلاثة، فكلّ فضاء هو قادح لفضاء آخر هدف، ليحقّق

مبدأ الاهتداء.ومن العناصر المشتركة شخصية "نجيب رحمة" الذي يعدّ محوراً أساسياً في الأفضية الثلاثة، حيث تترابط الأفضية من خلال هذا العنصر، فهو البؤرة(focus)التي يهتدى منها إلى سائر الأفضية، فالفضاء البؤرة هو "ما ينضاف إلى بنيته شيء أو عنصر أو خصيصة أو ما يهتدى إليه انطلاقاً من الفضاء المنظور" (الزنّاد، 2010، ص.212).

إن بنية النصّ تنشئ أفضية متنامية، ابتداءً من عتبة النص (أي: العنوان "إرم ذات العماد") المشكّل لفضاء منظور"رحلة صوفية للبحث عن إرم ذات العماد"، والفضاء الثاني –وهو الوسيط الصوفي– المتمثّل في"لقاء نجيب رحمة بزين العابدين النهاوندي" تأسّس على الأوّل وفق أطر فكرية معرفية سمحت بإنشاء تمثيلات ذهنية متعدّدة، ثمّ نتج هذا الفضاء الثالث–وهو "الوصول إلى المصدر الصوفي للمعرفة"–من خلال "لقاء نجيب رحمة بآمنة العلوي" عن طريق الدخل الفعلي (يقف، يلتفت، ونحوهما...)، فكان زين العابدين بمثابة الوسيط بين نجيب وآمنة، وهذا الفضاء الثالث جسّد رغبة نجيب رحمة في البحث عن المعرفة.

وينتقل الانتباه في الفضاء الذهني الثالث بظهور شخصية "آمنة العلوية"، ومن ثمّ رؤية نجيب رحمة لها وتعرّفه عليها بواسطة زين العابدين النهاوندي، وهذا الانتقال يمثّل العقدة في بناء الخطاب، فقد انضم إلى الأفضية فضاء جديد مبني على أفضية سابقة وبانٍلأفضية لاحقة، فنشأ فضاء جديد متولّد عن الفضاء الثاني ومتّصل به دلالياً وذهنياً وتركيبياً، وذلك عندما انقطع الحوار بين نجيب رحمة وزين العابدين فجأة، وأخذ الكاتب يصف حال زين العابدين قائلاً: "يقف زين العابدين فجأة عن الكلام، ويلتفت إلى الجهة الشرقية مصغياً، ثمّ ينتصب على قدميه، ويومئ إلى نجيب أن ينتبه فيفعل هذا ممتثلاً. زين العابدين هامساً: هو ذا آمنة العلوية" (جبران، 1994، ص.ص.121–122). فهذا القول يؤسس لبناء فضاء ذهني قرين جديد، وهو لقاء نجيب رحمة بآمنة العلوية، فالكاتب استخدم في هذا المقطع السردي أفعال متتالية بانية ومؤسسة لهذا الفضاء الجديد وهي: يقف، يلتفت، ينتصب، يومئ، يقول، ثمّ كشف الكاتب عن ظهور الشخصية الرئيسة على لسان شخصية سابقة، هي شخصية زين العابدين النهاوندي، عندما قال:"هو ذا، آمنة العلوية" ليكمل بناء هذا الفضاء الجديد وتأسيسهويربط ويلائم بين الفضاء السابق (الثاني) والجديد (الثالث)، "ونرى أنّ مبدأ التلاؤم بين هذه الفضاءات وحسن توظيف منتج النصّ للعناصر البانية لها هو الذي أسهم في تبسيط عملية القراءة والتأويل في ضوء النظرية المذكورة [الأفضية الذهنية]. فما يتكوّن في ذهن منتج النصّ من معانٍ يحتاج إلى بنية لغوية مخصوصة بوحدات تركيبية محدّدة لتوجيه المسار التأويلي وفهم المقصود" (الذويبي، 2016، ص.21).

ويقوم هذا الفضاء على عنصرين أساسيين هما: آمنة العلوية ونجيب رحمة. ونجد استخدامًا آخرَ لاسم نجيب رحمة من قبل آمنة العلوية، حيث دعته باللبناني، فيتمّ الربط ذهنياً بين العنصرين رحمة واللبناني، "ويقوم هذا الربط بواسطة روابط (connectors) تقيم علاقات بين مقابلات من العناصر. وتحدّد المقابلات على أساس وظيفة ذريعية (pragmatic function). فعندما تكون العناصر المنتمية إلى فضاءات ذهنية مختلفة مرتبطة بوظيفة ذريعية معيّنة، فإنها تعدّ مقابلات. ومن أنماط الوظائف الذريعية البارزة وظيفة التطابق (أو التعيين)" (الشمري، 2019،ص.310). ونجيب رحمة اسم

لشخصية أساسية في مسرحية "إرم ذات العماد"، واللبناني صفة استخدمتها آمنة العلوية لمخاطبته في حوارها معه، فالوظيفة التداولية أو الذريعية الرابطة بين العنصرين (نجيب واللبناني) هي وظيفة الاشتراك الإحالي أو التطابق؛ لأنّهما يحيلان على الشخص نفسه، حيث إنّ "العناصر التي تنتمي إلى فضاءات ذهنية مختلفة والتي تكون مشتركة في الإحالة (أي تكون مقابلات مربوطة عن طريق التطابق)، تعدّمتعالقة بواسطة روابط تطابق" (الشمري، 2019، ص.310). إنّ نجيبًا واللبنانيَّ مرتبطان عن طريق وظيفة تداولية، فهناك وظيفة تربط الشخص بالمكان الذي ينتمي إليه أو موطنه، ومبدأ التعيين يسمح باستخدام وصف "اللبناني" للدلالة على "نجيب"، أو بعبارة أخرى وصف "اللبناني" يسمح بتعيين "نجيب"، ويمكن أن يُسمّى –حسب رأي فوكونييه– "اللبناني" قادحاً للإحالة، و"نجيب" هدفاً للإحالة، وانتمائه للبنان (موطنه) هو الرابط، فهو ترابط تداولي ذريعي.

والعقدة في هذا النصّ متمثّلة في الانتقال من فضاء إلى آخر، حيث ينصبّ الاهتمام على مقابلة نجيب رحمة لآمنة العلوية بعد أن كان الاهتمام منصبًّا على عملية البحث عنها، ولكن هناك قرائن تعمل على ربط الأفضية الذهنية ممّا يجعل المتلقي يهتدي إلى الدلالات المقصودة، مثل الشخصيات في المسرحية وترابطها ببعضها ترابطاً فكرياً وثقافياً، فجبران خليل جبران عبّر عن توجهه الصوفي في النصّ كاملاً من خلال شخصية زين العابدين التي ذكرناها في الفضاء السابق، وشخصية آمنة العلوية التي سنقف عندها الآن، فهي شخصية صوفية زاهدة تشبه "رابعة العدوية" المتصوّفة العباسية التي كانت تمتثلوتدعو إلى أخلاق ومُثُل الصوفية في رحلة حياتها، وآمنة العلوية في المسرحية هي أيضاً تمتلك هذه المعرفة والأخلاقوتبشّر بها، وهي صوت جبران المعبّر عن آرائه الصوفية، فجعلها جبران الشخص الوحيد الذي استطاع الوصول إلى "إرم ذات العماد"، وهذا دليل على مكانتها وبالتالي على مكانة الصوفية عنده. كما أنّ جبران عندما اختار اسم آمنة العلوية، كان اختياره اختياراً مقصوداً "استند فيه على معاني هاتين اللفظتين ودلالتهما؛ فآمنة تعني الهادئة المطمئنّة والواثقة من نفسها، والعلوية تعني السماوية الرائعة. وهذه المعاني تناسب الرسالة التي حمّلها جبران لآمنة في المسرحية وهي رسالة علوية سماوية في معانيها وقيمها الروحية وفي التجربة الصوفية ذاتها التي أرادها جبران أن تتفتّح عن المعرفة والحكمة والأسرار النورانية" (صحراوي، 2009، ص.ص.162–163).فآمنة العلوية هي شخصية رئيسة في هذه المسرحية، وهي تمتلك المعرفة فهي السبيل إلى الاهتداء والوصول إلى الهدف وهو معرفة أسرار المدينة المحجوبة(أي: إرم ذات العماد)، فقد قامت آمنة برحلة صوفية من خلال دخولها إرم ذات العماد، فعادت محمّلة بالأسرار الروحانية والحكم والمعرفة.

إن هذا الفضاء الثالث يحيل على فلسفة وجودية هي هدف أساسي في أعمال جبران خليل جبران، وتظهر هذه الفلسفة في هذا النصّمن خلال بحثه عن المدينة المحجوبة التي استطاع الوصول إليها من خلال بنية الخطاب المتسلسلة والمبنية على بعضها البعض، حيث يأتي هذا الفضاء ويتشكّل في مقام المحاورة بين نجيب رحمة وآمنة العلوية، ويظهر من خلال مضمون السؤال والجواب عن إرم ذات العماد، وهو حوار متواصل يحمل معرفة وحقائق وأسرار عن الحياة والكون والوجود، فتجيب آمنة العلوية على أسئلة نجيب رحمة التي هي أسئلة قد تتبادر إلى أذهان الناس عامة على

اختلافهم، ومن ثمّ يحصل نجيبرحمة على المعرفة أو سر هذه المدينة المحجوبة، فيأتي الفضاء الرابع والخامس سليلان للفضاء الثالث، حيث تتوالد الأفضية في هذا النصّ توالداً منطقياً مترابطاً ترابطاً مكانياً وزمانياً، فكلّها تتشكّل في المكان ذاته والزمان نفسه.

فهذه الأفضية تشكّل معنى تصوّري مختلف عن المعنى الحرفي، "فلا مجال لمعالجة المعنى خارج المنظور التصوّري وما يسنده من أفضية ذهنية، فالمتكلّم يحدّد المعنى المراد إيصاله مسبقاً، ثمّ ينتج بنية لسانية تتبناه ضمن تناسق مفرداتها، ويسنح المجال للمتلقي للتسلّل بين فجوات الخطاب مؤوّلاً للدلالات، باحثاً عن المقاصد متنقلاً بين المعاني مؤلّفاً جملة من الأفضية الذهنية، فيرتحل من عالم الواقع إلى عالم الخيال" (بوخاتمي، 2022، ص.843). فكلّ فضاء قرين واقعي يؤسّس فضاءً ابنًا متخيّلًا من خلال محدّدات لغوية وتداولية.

- الفضاء الرابع والخامس:فضاء قرين (وداع نجيب رحمة لآمنة العلوية) حاضن لفضاء ابن4 (انتهاء الرحلة الصوفية)،وفضاء قرين (الحصول على حقائق إرم ذات العماد) حاضن لفضاء ابن5 (بلوغ الهدف بالحصول على المعرفة):

يُبنى الفضاءان الرابعوالخامس بعد حوار طويل بين نجيب رحمة وآمنة العلوية، وهو حوار فلسفي وجودي يبحث في أسرار الحياة والكون كما هي عند الصوفية، ففي نهاية هذا الحوار يتأسّس فضاءان جديدانهما:فضاء قرين (وداع نجيب رحمة لآمنة العلوية) يشكّل فضاءابن رابع وهو(انتهاء الرحلة الصوفية)، وفضاء قرين (حصول نجيب رحمة على حقائق إرم ذات العماد) يشكّل فضاءًابنًا خامسًا وهو(بلوغ الهدف والحصول على المعرفة)، والباني لهذان الفضاءان المتصاحبان قول جبران: "نجيب– ينتصب واقفاً شاعراً بدنو انصرافه" (جبران، 1994، ص.134)، ويتأكّد ذلك بقوله: "نجيب: سأسير في نور المشعل الذي وضعته في يدي يا سيدتي. العلويّة: سر بنور الحقّ الذي لا تطفئه الأهوية" (جبران، 1994، ص.ص.134–135).

فبعض الأفضية تولّد أكثر من فضاء في الخطاب، فالفضاء الرابع المتمثّل في انتهاء الرحلةالصوفية بوداع نجيب رحمة لآمنة العلوية، له فضاء أخٌ هو فضاء حصول نجيب رحمة على المعرفة وحقائق المدينة المحجوبة من آمنة العلوية من خلال السؤال الذي طرحه عليها، فهو يتساءل عمّا سيقوله للناس بعد عودته، فيقول: "أأقول للناس يا سيدتي عندما أعود إليهم إنّ إرم ذات العماد مدينة أحلام روحية، وإنّ آمنة العلوية قد سارت إليها على سبيل الشوق ودخلتها من باب الإيمان؟ العلوية: قل إنّ إرم ذات العماد مدينة حقيقية كائنة بكيان الجبال، والغابات، والبحار، والصحارى. وقل إنّ آمنة العلوية قد وصلت إليها بعد أن قطعت البادية الخالية [...] وقل للنّاس إنّ من لا يشعل سراجه لا يرى في الظلام سوى الظلام" (جبران، 1994، ص.134). فالسؤال هنا عن إرم ذات العماد والتأكّد من حقيقتها هو فعل له حضور مزامن لفعل الوداع، فكلاهما واقعٌ في زمن واحد وهو زمن الوقوف للانصراف، فهذا الزمن هو العنصر الدال على حدث الوداع

وحدث الحصول على المعرفة من خلال السؤال. فالمتلقي يتوقع فضاء الوداع بعد الوقوف إلّا أنّه يتفاجأ بفضاء آخر مصاحب له وهو فضاء الحصول على المعرفة بالسؤال.

إنّ هذا الفضاء الأخير مرتبط بالفضاء الأوّل (المنظور) من خلال مبدأ الاهتداء والوصول إلى الهدف، فقد بُني الفضاء الأوّل وتأسّس على رغبة نجيب رحمة في الوصول إلى حقائق المدينة المحجوبة "إرم ذات العماد"، فكلّ فضاء في النصّ كان قادحاً للوصول إلى الفضاء الذي يليه بشكل تسلسلي مترابط ومنسجم، ويمكن توضيحه من خلال الشكل التالي:

(الفضاء1 فضاء أساس أو منظور) إرم ذات العماد (قرين)

رحلة صوفية للبحث عن المدينة المفقودة(ابن1)

(الفضاء2) لقاء نجيب رحمة بزين العابدين النهاوندي (قرين)

الوسيط الصوفي للوصول إلى المعرفة (ابن2)

(الفضاء3) لقاء نجيب رحمة بآمنة العلوية (قرين)

الوصول للمصدر الصوفي للحصول على المعرفة (ابن3)

(الفضاء4) وداع نجيب رحمة لآمنة العلوية (قرين)(الفضاء5) الحصول على حقائق إرم ذات العماد (قرين)

انتهاء الرحلة الصوفية (ابن4)بلوغ الهدف بالحصول على المعرفة (ابن5)

في الشكل السابق تمثيللتناسل الأفضية وترابطها، فالفضاء الأوّل له أبناء عدّة ولكن واحداً منها يتحقق في الخطاب، وهذا الفضاء الابن تتولّد منه أيضاً أفضية متعدّدة يتحقق واحد منها في الخطاب وهكذا مع باقي الأفضية، ويتمّ الربط بين الأفضية أو التقديم لها من خلال عناصر بانية هي بناة الأفضية، "ونلاحظ أنّ بناءها خاصّ بالمتكلّم، أي مجالها الأوّل هو الإنتاج وليس التلقّي، والإنتاج بمختلف صوره: اللغوية وغير اللغوية، حقيقة كانت أم متخيّلة، أمّا دورها في التلقّي يكمن في إحالة المخاطب على بناء فضاء ذهني آخر بالاعتقادات نفسها التي يحاول المتكلّم أن ينقلها من خلال تلك الأفضية" (بوشليق، 2019، ص.40). ففي الانتقال من الفضاء القرين إلى الفضاء الابن تمّت الاستعانة بعناصر ومحدّدات مختلفة،على النحو الآتي. أوّلاً: المكان، وهو الغابة التي تمثّل الطبيعة الخام والتي لها دلالة عند الصوفية، وثانياً: الزمان، فقد اختار الكاتب سنة ميلاده لينقلنا إلى فضاء متخيل مفاده أنّ هذه الرحلة هي رحلته الشخصية وتمثّل فكره وتساؤلاته في الحياة والوجود، ثالثاً: الأوصاف والأسماء، مثل: إرم ذات العماد التي تمثّل المدينة المحجوبة وصوفي ونهاوندي وآمنة العلوية كلّها لها دلالات خاصّة ربطت هذه الرحلة بالفكر الصوفي، رابعاً: الأفعال فيالتقديم السردي ووصف حال الشخصيات ووضعها من قبل الكاتب. كلّ هذه الوحدات البانية عكست واقعاً مفترضاً متعلّقاً بأفكار ومعتقدات الكاتب. فهناك إذن ربط عرفاني تداولي بين الأفضية، فإذا كان الفضاء الأوّل فضاء مؤسس وقادح لجميع الأفضية، فإنّ الفضاء الأخير فضاء اختزال لجميع الأفضية ويمثّل الوصول إلى الهدف.

من خلال ما سبق تتواتر الأفضية الذهنية وتتوالد انطلاقاً من الفضاء المنظورالذي يتشكّل من خلال عنوان النصّ، حيث يحمل العنوانخلفية معرفية مشتركة بين الكاتب والمتلقي، تحكم هذه المعرفة سياق التلقي وتوجّهه، ممّا يؤدّي إلى تشكّل تصوّرات ذهنية مسبقة تساعد على فهم النصّ وتأويله، ثمّ تتتالى التصوّرات والانفعالات داخل ذهن الكاتب والمرتبطة بعنوان النصّ،وبالتالي تتواتر معها الأفضية الذهنية المتولّدة عنّ الفضاء المنظور، ما يفرض انسجاماً كليّاً بين الأفضية يدرك عبر النصّ ويدرك النصّ عبره.

- **النتائج:**

1. تتكوّن الأفضية الذهنية في مسرحية إرم ذات العماد لجبران خليل جبران من خمسة أفضية ذهنية، تتناسل تناسلاً عمودياً، فكلّ فضاء ينتج عن الآخر، وكلّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالفضاء المنظور. والانتقال من فضاء إلى آخر يمثّل العقدة في انبناء الخطاب، فتتوالد الأفضية توالداً منطقياً مترابطاً ترابطاً ثقافياً وفكرياً ومكانياً وزمانياً.
2. بنيت الأفضية الذهنية في مسرحية إرم ذات العماد لجبران خليل جبران بالاستعانةبعناصر وقرائن ومحدّدات ثقافية واجتماعية مختلفة ساعدت على الاهتداء إلى الهدف، وهي: أولاً: حكاية تاريخية "إرم ذات العماد"،ثانياً:تحديد المكان (غابة)،ثالثاً: تحديد الزمان (تمّوز 1883)،رابعاً: الشخصيات الصوفية (زين العابدين النهاوندي وآمنة العلوية)، والباحث عن المعرفة (نجيب رحمة). حيث إنّ البنية الذهنية والإيديولوجية والثقافية لجبران خليل جبران هي التي شكّلت هذه العناصر وربطتها ببعضها البعض لتؤسس الأفضية الذهنية، فكلّ فضاء مرتبط بعناصر تساعد على الاهتداء إلى الهدف، وهي مرتبطة ببعضها بروابط تركيبية تداولية.
3. إنّ كلّ فضاء في مسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران يختزل جملة من المعلومات، وجميعها منتهية إلى إطار متكامل تمثّله مدينة "إرم ذات العماد" بكلّ أوصافها وخصائصها المترسّخة –بفعل الثقافة– في أذهان الناس، فقد سمح المركّب التصوّري (وهو "إرم ذات العماد") بكلّ أطره الافتراضية بتناسل الأفضية الذهنية تراتبياً، اهتداء بدلالات هذه الأطر (الجنّة، الطبيعة، الرحلة، المدينة المحجوبة، المعرفة...)، ممّا ساعد على انسجام الأفضية وانصهار كلّ منها في الآخر فهي مبنية على ما سبقها وبانية لما بعدها، وبالتالي ساعدت على تشكيل بنية معرفية منسجمة ومتكاملة.
4. تأسّست الأفضية الذهنية في مسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران وفق أطر فكرية معرفية سمحت بإنشاء تمثيلات ذهنية متعدّدة، فهي تحيل على فلسفة صوفية وجودية تنشأ وتبرز في النصّ من خلال بنية الخطاب المتسلسلة والمبنية على بعضها البعض، وهي فلسفة يلحّ عليها جبران خليل جبران في كثير من كتاباته. فقد استطاع جبران كتابة مسرحية أدبية من خلال احتضان نصّ من التراث القديم بكلّ ما يحمله من رموز وتأويلات وتوظيفه توظيفًا فعالًا، فاستعان بهذا النصّ التراثي ليساعده في العملية التخييلية المنشئة لنصّ يعبّر عن رحلة صوفية في البحث عن المعرفة والوجود وعن أسرار المدينة المحجوبة.
5. استطعنا من خلال نظرية الفضاءات الذهنية –التي تنظر في العمليّات والآليات الذهنية التي تنتج الدلالة– أنّ نفسّر كيفية انبناء المعاني وإنتاجها في مسرحية "إرم ذات العماد" لجبران خليل جبران، حيث بنى الكاتب أفضية ذهنية من أفضية قرينة اختارها للتعبير عن أفكاره والوصول إلى هدفه. وكانكلّ فضاء قادح لفضاء آخر هدفًا من خلال مبدأ الاهتداء، كما كان الفضاء الأوّل فضاء مؤسس وقادح لما بعده من الأفضية، والفضاء الأخير فضاء اختزال وإكمال لما سبقه من الأفضية، وهي كلّها تحقق المقاصد الصوفية التي أرادها جبران خليل جبران.

Abstract

Meaning compositionality in the text of *"Iram-a DhātAl-Imād"* (Iram- Who Had Lofty Pillars) by Gibran Khalil Gibran in the light of the theory of mental spaces

By Norah Alhmeli

This research aims to examine the play of "Iram-a Dhāt Al-Imād" (Iram- who had lofty pillars) by Gibran Khalil Gibran in the light of the theory of the mental spaces byGilles Fauconnier, which is one of the theories branching from cognitive linguistics, as this theory allows the interpretation of speech by researching how the meaning composes through similar components, elements, roles and relationships between these. The play of "Iram-a Dhāt Al-Imād" (Iram- who had lofty pillars) by Gibran Khalil Gibran is subject to cognitive processes and mental mechanisms, which make imagination possible and facilitate the process of understanding and interpretation. Gibran has utilized cultural clues to establish mental spaces built of hypothetical ones to reach his target, as the city of Iram-a Dhāt Al-Imādrepresents an integrated framework through descriptions and characteristics that are established by culture, which leads to the creation of multiple mental representations, and to the formation of a consistent cognitive structure, a theory that has helped in exploring how meaning is composed and characters are portrayedby the knowledge established in the writer's and the recipient's minds. We concluded that these spaces refer to a mystical, existential philosophy that appears in the text and gets formed through its chain of compositionality, and that every space triggered by another onewas a targetthrough the principle of conversion, so the spaces in this text were generated in a purposeful and logical manner and interconnected intellectually and structurally.

Keywords: Iram-a Dhāt Al-Imād, Mental Spaces,Gibran Khalil Gibran, Gilles Fauconnier, Cognitivism.

- المصادر والمراجع:

بوخاتمي، زهرة. (2022). "الأفضية الذهنية في (المنقار والبؤبؤ) من قصص (ذكريات من مواجع على ضفاف عدن) لعبدالرحمن بن يونس. *المجلس الأعلى للغة العربية*، 24 (4)، 831-855.

بوشليق، وهيبة. (2019). "نظرية الأفضية الذهنية: المفهوم والإجراءات". *مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب*، 3، 35-43.

جاكندوف، راي. (2010). *علم الدلالة والعرفانية*. ترجمة: عبدالرزاق بنور. دار سيناترا- المركز الوطني للترجمة.

جبران، جبران خليل. (1994). *البدائع والطرائف*. دار العلم للملايين.

الجبوري، كامل. (2002). *معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتّى سنة 2002*. المجلّد الثاني. دار الكتب العلمية.

جحفة، عبدالمجيد. (2000). *مدخل إلى الدلالة الحديثة*. دار توبقال للنشر.

الجدّاري، عمارة. (2021). "الأفضية الذهنية في الخطاب القرآني من خلال نماذج". *مجلة الباحث*، 13 (1)، 79-94.

الذويبي، لطفي. (2016). "قدرة الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية". *مجلة العلامة*، 3، 11-27.

الزنّاد، الأزهر. (2010). *نظريات لسانية عرفنية*. الدار العربية للعلوم ناشرون.

سعودي، جهيدة، وقبايلي، عبدالغاني. (2022). "نظرية الأفضية الذهنية في البحث اللساني العرفاني العربي بين النظرية والتطبيق". *مجلة ميلاف للبحوث والدراسات*، 8 (1)، 340-357.

الشمّري، غسّان. (2019). "الفضاءات الذهنية وبناء المعنى: الاستعارة والكناية أنموذجاً". *مجلة جرش للبحوث والدراسات*، 20 (1)، 297-325.

صحراوي، عبدالسلام. (2009). "الرحلة إلى (إرم ذات العماد) المدينة المحجوبة بين جبران ونسيب عريضة". *مجلة العلوم الإنسانية*، أ (32)، 155-170.

الكعبي، ضياء. (2022). "الأثر المتخيّل والتأويل: (إرم ذات العماد) في الخطاب الأدبي العربي أنموذجاً". *المركز مجلة الدراسات العربية*، 1، 21-47.

موشلر، جاك، وريبول، آن. (2010). *القاموس الموسوعي للتداولية*. ترجمة: عزالدين المجدوب وآخرون. منشورات دار سيناترا- المركز الوطني للترجمة.

النصراوي، جنان. (2023). "التقابلات الوجدانية في القرآن الكريم في ضوء نظرية الأفضية الذهنية". ضمن كتاب: *قضايا في الخطاب والبلاغة المعرفية*. كنوز المعرفة.